المحاضرة العاشرة : مدخلات المستشرقين في التاريخ العربي : (1)

1- الشعوبية والقومية: نجد في الكتابات الاستشراقية دفاعا عن الشعوبية وتشويها للتاريخ الاسلامي، فهؤلاء المستشرقين انطقوا من أفكارهم التي هي غريبة عن روح الاسلام وطبيعة المسلمين للتجني عن التاريخ العربي والطعن في الاسلام وقادته وتشويه صورة المسلمين، وابراز السلبيات والتناقضات والتركيز على النقاط السوداء والحوادث الغامضة، وحوادث الفتن والحروب بين المسلمين، والفرق الاسلامية الضالة والدعوات المشبوهة، والثورات والحركات الانفصالية والخلافات والانقسامات، وكانوا يبرزون مميزات كل اقليم وكأنه منفصل عن بقية الاقاليم الاسلامية فهم يشعون التعددية والانقسام.

وقد تأثر بهم بعض المفكرين العرب ودعوا لإحياء اللغات القديمة والتخلي عن اللغة العربية وقالو صراحة اننا لسنا عرب، ومن هؤلاء سلامة موسى ومن من المسيحين المصريين فقد دعا إلى كل ما يُخرج المثقف العربي المسلم عن قيمه، وحاول أن يتخذ من العلمانية والإلحاد والإباحية والمنهج المادي في تفسير التاريخ والعالمية أدواته، ومن قوله: «يجب أن يكون الناس أحراراً في تبديل قوانين الحكم والزواج والطلاق والتربية والأخلاق وسائر ما يؤثر في حياة الفرد والسلالة»، وقوله: «ليس علينا للعرب أي ولاء، إننا أرقى من العرب، إن العربية ليست لغتنا، ولا نستفيد منها، وإن لنا من العرب ألفاظهم فقط لا لغتهم، والأصلح لمصر أن تعود إلى وطنية فرعونية»، وقوله: «نحن أوروبيون في الدم والمزاج والثقافة واللغة، فليس من الصواب أن يقال إننا شرقيون، ومن مصلحتنا أن نغرس في أذهان جميع العرب أنهم أوروبيون سلالة وثقافة وحضارة».

والجدير بالذكر ان المستشرقون قد قفزوا على التاريخ الاسلامي وتجاوزوه الى التاريخ القديم ولم يكن ذلك من باب الصدفة بل كان الغرض احياء القوميات القديمة وبث الفرقة فيفتخر المصري بالتاريخ الفرعوني على حساب التاريخ العربي

الاسلامي، ويفتخر البربري بالتاريخ النوميدي ويعتبر العرب محتلين، وقد خصص المستشرقين جزء كبير من جهودهم للتاريخ القديم وقد جاء لك في المؤتمر الخامس عشر للاستشراق فقد كان جدول الاعمال كلها عن التاريخ القديم.

دراسة الفرق الضالة والافكار الهدامة:

يظهر المستشرقون كل الامور السلبية ويلقون الضوء عليها اكثر من الايجابيات، فكثيرا ما كان المستشرقون يلحون في دراسات الصراعات والعصبيات القبلية والأفكار الشعوبية، ومن الظواهر التي جلبت انتباه المستشرقين عن صدر الاسلام وركزوا عليها دراساتهم في نشوء الفرق والمذاهب الإسلامية، فبعضهم دفعته رغبة في التحري والبحث العلمي لمعرفة أسباب الانشقاق في الأمة الإسلامية، ثم دفعه حب الاستطلاع أكثر وأكثر إلى سبر غور تلك الفرق أو ربما فرقة واحدة منها كما فعل "ايفانون" و "لويس" في دراساتهم عن بعض الفرق، إلا أن فئة أخرى اندفعت في دراستها للفرق بسبب عوامل سياسية و ارتباطاتها مع مخططات الدول الأوروبية في المنطقة كما هي الحالة مثلا مع «لامنس» في سوريا و لبنان، و«بالمر» في مصر وفلسطين و«سنوك هورخرونيه» في شبه الجزيرة العربية.

ونجد في الكتابات الاستشرافية ميلا للخوارج والشيعة الذين يصفونهم بأحزاب المعارضة الاسلامية وهو ما نجده عند يوليوس فولهاوزن الذي تأثر به الكتاب العرب فصاروا يصفون الثورات والتمردات بالمعارضة، ولا شك ان دراسة الفرق الضالة والنقاط السوداء والحوادث المنفردة يمثل تربة خصبة للمستشرقين لدراستها بعضهم قد يكون دافعه هو البحث عن الآراء الاخرى والقاء الضوء على الاقليات في الاسلام ودورهم التاريخي والبعض الاخر يبحث عن مدخلا يطعن فيه في الاسلام.

ولذلك فان دراسة الفرق الاسلامية كان اهم مجال اختص به المستشرقون .

أما بالنسبة للتشيع فقد حضي باهتمام المستشرقين منذ القرن التاسع عشر مع الاستشراق البريطاني، فقد ألّف جون مالكوم عام 1829 كتاباً بجُزءين عن «النجف

الأشرف»، ثمّ نشر لويس بيلي كتاباً بجزئيين عن «الإمامين الحسن والحسين»، عام 1879، ومن ثمّ كتاب المستشرق الفرنسي هنري ماسيه «المهدي من بداية أصوله الإسلامية وحتى أيامنا هذه»، باريس 1885. بعد ذلك، ألّف المستشرق الألماني فلهاوز"، عام 1899 دراسة عن أصول التشيّع، ثم كتاب المستشرق الألماني "فستنفلد في تحقيقه وترجمته لكتاب «أبي مخنف ـ مقتل الحسين»، وكذلك المستشرق الهولندي فان فلوتن، الذي أعدّ بحثاً عن الإمام الحسين عام 1892، وتعرَّض المستشرق نولدكه 1909، إلى تاريخ التشيّع في كتابه عن الإمام الحسين، والمستشرق البريطاني دوايت دونالدسون عام 1933، الف كتاب عن العقيدة الشيعيّة «الديانة الشيعية». ثمّ كان المستشرقة الإيطالية "فاجدا" التي قدّمت بحثاً أشارت فيه إلى الشيعة الاثني عشرية .

وقد وقف المستشرقون الاوائل في صف الشيعة وناصرو افكارهم ودافعو عنها، ومنهم "وليم الصوري" أهم مؤرخي الحملات الصليبية في القرن الـ 12 قال بان الشيعة يعتقدون بأن عليا هو نبي الإسلام الحقيقي، لولا أن الملاك جبريل أخطأ وأوصل الرسالة إلى محمد، وسار على نهج الصوري "يعقوب دي فيتري" مطران عكا فيما بين 1216 و1228م والذي روج فيما كتب أن عليا كان نبيا مرموقا تكلم إليه الله كتقدير تمييزي عن النبي محمد، وبالمثل روج المنصر الشهير "ريكولدو ديمونتو" كروس أن الشيعة يعتقدون بأن محمدا اغتصب حقوق علي، واعتبر "ريكولدو" أن اتباع علي يحتفظون بقدر من اللطف وانهم أقل شيطنة من الأغلبية السنية.

اما المستشرقون المعاصرون فلم يساندوا افكار الشيعة فالكثير منهم تشكك في حديث "غدير خم"، وهو الحديث الذي يستند اليه الشيعة في اثبات احقيتهم بالخلافة، حيث يقولون ان رسول الله ﷺ اوصى بالخلافة من بعده لعلي بن ابي طالب، وقد استبعد المستشرق "مارجليوث" في كتابه "محمد وظهور الإسلام" هذه التوصية المزعومة، وكذلك فعل بروكلمان في كتابه "تاريخ المسلمين"، وكذلك المستشرق

"جولد تسهير" الذي أورد رواية "غدير خم" بصيغة التشكيك، كما وصف "جولد تسيهر" التشيع بانه نشأ في البيئة الفارسية وهي منطقة تنبت فيها جراثيم السخافات التي حللت وقضت على نظرية الألوهية في الإسلام.

ومن المؤيدين للأصول الفارسية للتشيع الهولندي «رينهارت دوزي»، في كتابه "ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام"، عندما أكد الربط بين المذهب الشيعي وبلاد الفرس التي التقت فيها أخلاط من المذاهب المختلفة وأمشاج من النِّحَل المتباينة، ووجدت في هذه البلاد حقلًا خصبًا لازدهارها»، واعتقد دوزي أن التشيع كان هو سبب اقبال الفرس على الانخراط في الدين الإسلامي واعتناقه بعد الفتح العربي لإيران، أما المستشرق الألماني "يوليوس فلهاوزن" في كتابه" أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام"، فقال بأن التشيع ينسجم مع الشعب الفارسي، وهو يتفق "فلهاوزن" مع الرأي القائل برد التشيع إلى «خارج الإسلام»، فيتبع قوله السابق برأيه في أن التشيع يرجع إلى اليهودية لكنه وجد في ايران تربة خصبة للانتشار.

وممن يقولون بالأصل العربي للتشيع خاصة لدى اليمنيين كل من "مونتجمري وات" و"جولد زيهر"، ويستدل "مونتجمري وات" بذلك على أن فكرة الوراثة كان سائدة في سلالات ملوكهم القدامى قبل الاسلام وان حكامهم كانوا يتمتعون بصفة روحية.

على عكس الشيعة احتضن المستشرقون مذهب الخوارج واعتبروهم احزاب معارضة ضد طغيان الحكام الامويين، منهم من اعتبرهم نتيجة للصراع الاجتماعي داخل البلاد الاسلامية فأهالي البلاد المفتوحة قد تبنوا فكر الخوارج في نوع من الانتقام من الحكام وقادة الدولة الذين غزو بلادهم.

ومن ابرز المستشرقين الذين درسوا الخوارج "فان فولتن" و"فولهاوزن"، اما "فان فولتن" فيرى ان الخوارج جمهوريون، لانهم يمثلون المبادئ الديمقراطية المتطرفة، وهو

يربط بين الخوارج وبين الثوار الغربيين فيقول: كأن الثوار الغربيين أخذوا فكرتهم منهم .

أما "فولهاوزن" فيرى انهم حزبا ثوريا يعتصم بالتقوى، وانهم لم ينشؤوا عن عصبية العرب بل عن الاسلام، وهو يرى أنهم استباحوا دماء المسلمين لانهم يعتقدون ان عامة اهل السنة والجماعة اشد كفرا من اليهود والنصارى والمجوس، وأن حربهم لعثمان وعلي ومعاوية لم تستهدف الا استبدالهم بأئمة صالحين.

أما بالنسبة للمعتزلة فصورتهم جيدة عند المستشرقين فجولد زيهر يرى أن المعتزلة هم اول من ادخل النزعة العقلية في الاسلام، وهو يرى ان فكر المعتزلة قد ظهر لدى الزهاد والعباد، اما دوزي فيرى ان القدرية والمعتزلة اسماً واحد ويتفق مع العديد من المستشرقين منهم: "هوتسمان" و"فون كريمر" و"شتينر" ، بينما يرى "نلينو " ان فكر المعتزلة قد ظهر ايام الحرب الاهلية في معركة الجمل ثم صفين، حيث اعتزلت فئة من الناس الطرفين المتحاربين ووقفت على الحياد.

اما التصوف فلم يكن له نصيب كبير من دراسات المستشرقين، ومن اشهر المختصين بالتصوف من المستشرقين "ماسنيون" ومن الذين درسوا التصوف ايضا "ماكدونالد" و"مارغوليوت" و"نيكلسون" و"اربيري"، وقد خصص "لويس ماسينون" جزء من دراساته للحلاج الذي اعتبره صورة من المسيح في الإسلام، ويعتبر ماسنيون مثل الكثير من المستشرقين الذين كانوا يشيعون الفكر الصوفي ويسعون لنشر فكرة كون فرنسا في الجزائر قضاء وقدر يجب الرضاء به وعدم مقاومة الفرنسيين، ولا شك أن كلمة "الله غالب" قد انتشرت في الجزائر نتيجة فكر الاستشراق، كما انتشرت الكثير من الخرافات الاخرى، وقد كان لويس ماسنيون مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية لشؤون الشمال الإفريقي، والراعي الروحي للمجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر، وقد كان المستشرقين بشكل عام مساندين للتصوف فقد ذكر المستشرق

كوربان ان صلاح الدين الايوبي أمر بقتل "السهروردي" وهو فقيه كردي لأن الفقهاء استطاعوا التأثير فيه .